مفهوم الثقافة *

دونيز كامبوشنير

ترجمة : جمال حيمر

يتأرجح مفهوم الثقافة عند الناس بين أمرين أو ثلاثة على الأقل، أولهما أن لفظ ثقافة يتخذ عدة معاني، وثانيهما كون العلاقة بين هذه المعاني المتعددة ليست على وجه الدقة بسيطة، بل معقدة ومتشابكة.

نسجل في البداية أن التصورات المتعددة لكلمة ثقافة يمكن أن تفضي إلى ثلاثة معاني:

تشمل الثقافة في المعنى الأول (A) وهو الأكثر شيوعا وعمقا وهو الذي يمكن أن نسميه معنى وجوديا، كل ما يفيد أن الوجود الإنساني يتعالى على الحيوانية الصرفة وبشكل أعم يتعالى على الطبيعة. قد يكون ثمة إشكال بخصوص تصورنا للعلاقة القائمة بين الطبيعة والثقافة، وبخصوص إمكانية التمييز الصارم بين النظامين المتميزين، وخاصة فيما يتعلق بالشروط أو المبادئ الحقيقية التي من خلالها أصبحت الثقافة الإنسانية ممكنة: لكن ليس هناك بشكل عام شك يخص العلامات الدالة على الثقافة ويخص، تبعا لذلك، تعددية أبعادها.

قد يشكل رسم دقيق لشكل هندسي على رمال جزيرة خالية للوهلة الأولى علامة ثقافية أكثر مما يمكن أن يعنيه أثر قدم رجل يرمز لحضور كائنات بشرية فيها. وتحديدا فإن كل المظاهر الثقافية تتجلى في عنصر أو في علامات رمزية تتميز في طريقة اشتغالها عن العلامات العادية.

يتحقق الإمساك بهذه العلامات من خلال أشكال مميزة، وتشكل، مع هامش الخطأ الممكن أو احتمال الغموض، حقيقة متميزة، وهي حقيقة يجوز أن نقول عنها إنها حقيقة إنسانية صرفة في حدود أن الإنسان هو الكائن الوحيد ضمن كل ما نعرفه عن هذا الكون الذي يضع بعض أنواع العلامات بطريقة تدفع إلى الاعتقاد أن هذه العلامات ذاتها هي شيء ما بالنسبة إليه. وبمعنى آخر فهو مهتم بانشغاله إذ الكائن البشري يشتغل بالترميز.

يمكن اعتبار الثقافة التي تسم الإنسانية نظاما أو نسقا للوظائف أو الممارسات المتوازية، أكثر من ذلك يحق اعتبارها سيرورة مدروسة سواء على صعيد الفرد أو على صعيد الإنسانية على مر التاريخ. وسيكون تعدد هذه المقاربات الممكنة بطبيعة الحال حاسما في استنباط التعارض الذي سيقوم مع المعنيين الآخرين.

ويمكن استخلاص المعنى الثاني (B)، وهو معنى انثروبولوجي، من المعنى الأول دون إشكال مثير، وبالفعل منذ نهاية القرن التاسع عشر على الأقل بات من المألوف مطلقا أن نعين الثقافة بوصفها الطريقة المحددة الحاسمة التي بواسطتها تحقق جماعة ما في ذاتها ما تحيل عليه الثقافة بالمعنى الأول (A) في لحظة معينة من تاريخها أو من مآلها.

وهو ما يعني إذن أن الثقافة هي مجموع العادات والتمثلات الذهنية التي تشكل، قياسا إلى أخرى، نظاما أصيلا، يتم تداوله بين كل أفراد جماعة معينة بواسطة وسائل متعددة لكنها متغيرة نسبيا.

تشمل ثقافة مجتمع ما، كما يتوجب فهمها بالمعنى الواسع، مجموع العادات والقوانين والمعتقدات والتقنيات وأنماط الفن واللغة والفكر. إن البحث الأنثروبولوجي أو الأثنولوجي (الذي يجب أن نميزه عن علاقة إتنوغرافية بسيطة) يمكن ألا يطال سوى عناصر أو مظاهر ثقافة معينة وذلك خصيصا لمقارنتها مع بعض خاصيات ثقافات أخرى، إن هذا البحث يعتبر دائما هذه الثقافات مجموعا مندمجا حيث تشترط كل المكونات بعضها بعضا. وبما أن هذه المكونات لا يمكن أن توجد معزولة في نظر أفراد الجماعات المعنية، فإن النظام الذي تشكله ليس تركيبا خالصا، وتساهم هذه المكونات بواسطة تشكلها الخاص، في تكوين وحدة عالم هو ذاته العنصر الأساس والفعال للحياة الجماعية.

يدرس الباحث الأنثروبولوجي بصفة عامة المجموعات البشرية المنعزلة ذات الهيكلة البالغة الدقة، وهي مجموعات تعيش بمنأى عن الجماعات الأخرى، وبالتالي تتميز ثقافتها بوضوح عن ثقافة الجماعات المجاورة.

ومع ذلك، فإن التحديد المادي الدقيق لجماعة ما ليس ضروريا ولا كافيا ليكون هناك معنى يقترح لدراسة ثقافتها الخاصة: فمنذ ما قبل ميلاد الأنثروبولوجيا كعلم، جرى استعمال الكلمة بالنسبة للوحدات القومية والمجالية ليفيد معنى الوحدة الإثنية أو السياسة، واتسعت الدلالة بعد ذلك لتعني مختلف طبقات المجتمع نفسه، ولتدل طبعا على الأقليات الإثنية أو الدينية التي يمكن أن تتواجد في دولة معينة. ومنذ عقد أو عقدين تشعب هذا الاستعمال ذاته أكثر مع بروز فكرة أن كل وحدة اجتماعية

تعيش في الزمن (مؤسسة، مقاولة، عائلة...الخ) تمتلك ثقافتها الخاصة في نفس مرتبة المجتمع. وبالمثل، فإن كل نشاط تثقيفي ينجزه أفراد في علاقة بينهم وبين آخرين يحدد معنى "ثقافة" خاصة.

المعنى الثالث لكلمة ثقافة يمكن أن نقول عنه إنه كلاسيكي لكثرة تداوله وهو المعنى الذي كرسته بعض الأنظمة التعليمية. إن الثقافة وفق هذا المعنى الثالث لا تعني نظاما، بل بالأحرى سيرورة معينة، وتعني النتيجة الواقعية أو المثالية لهذه السيرورة كما يمكن أن تتجسد في سلوك فرد بعينه.

إن هذه السيرورة ليست فردية، وإنما كانت تتحقق دائما ضمن مجتمع وبمساهمة بعض المؤسسات، غير أن موضوعها هو في المقام الأول الفرد الذي لا نقول إنه يسمو بذلك عن الوجود الحيواني (وهو أمر لا قيمة له إذا كنا نعني بذلك أنه يمارس الثقافة بمعناها A، وهو بقيمة كبيرة إذا كان الأمر يتعلق بتجسيد نوع من الحرية الميتافيزيقية) بل يجسد فقط إنسانيته الخاصة (وفق تعريف هو الآخر كلاسيكي).

وهذا التجسيد ذاته هو تجسيد فكري. إنه يكمن في ممارسة دؤوبة ومتنوعة للملكات الفكرية، لكي تصل بها، في الحالات المثالية، إلى أقصى ممكناتها الاستعمالية. بيد أن هذا التجسيد لا يمكن أيضا أن يخلو من معنى أخلاقي حيث يتوجب على الإنسان المثقف أن يكون شغوفا بالمعرفة ومحترما لباقي الأفراد، وأن يتميز بازدرائه للرغبات المبتذلة، ومقته لكل أشكال العنف، ويتصرف دوما قدر الإمكان وفق ما يمليه عليه ضميره وما يقتضيه الواقع.

تتميز الثقافة مبدئيا، من خلال هذا البعد المزدوج، بكونها ليست مجرد ترويض، أو مجرد " تهذيب للأشياء "، إنها منذورة لأن تتحقق في ظل عامل خصوصي هو " منجزات العقل " التي هي طبعا منجزات الفن والشعر أو الأدب وأيضا الفكر المفهومي (العلم والفلسفة).

ويقتضي التعاطي مع هذه الأعمال التمكن من معرفة بالغة الدقة باللغات التي يتم بواسطتها تركيب تلك الأعمال أو استلهامها. وتلك المعرفة ذاتها هي التي تتيح إدراك مدى شساعة وتعدد الأشياء التي قام بها الناس أو عاشوها (الثقافة بالمعنى A)، والأمر كذلك بالنسبة للعالم الطبيعي، اعتبارا لاستحالة إدراكه بشكل مباشر.

إن الألفة الخاصة مع نوع أو مجال محدد من هذه الأعمال تحدد، دائما بمعنى خاص، ثقافة خاصة (أدبية، موسيقية، رياضية الخ). فهذه الثقافة تقتضي، فيما أهو أبعد من مجرد معرفة مدرسية، نوعا من الحكمة المتخصصة (تلك التي يعتمدها"الخبير"). بيد أن الثقافة بمعناها المطلق (معناها الحصري) ليست مجموعا لعدد من الثقافات الخاصة. إنها مبدئيا سيرورة متنوعة، لكنها موحدة، تكتسي

بالضرورة في علاقتها بالمعارف الخاصة صفة العمومية، بل والكونية أيضا. وهكذا أصبح من الشائع أن نطلق " ثقافة"، بمعنى موضوعي لا يرتبط بصلة مع المعنىA ولا مع المعنىB، على الكلية الكونية للأعمال الجديرة بالاحتفاظ بها، الأعمال الفكرية، وأيضا على تلك الأعمال اليدوية في علاقتها بمجموع المعارف والأنشطة الصادرة عنها.

النص المترجم من كتاب:
Notions de philosophie, sous la direction de Denis Kambouchner
من الصفحة 445 إلى الصفحة 452